دلالات الزمن في قصة أصحاب الكهف

الدكتور أخضري عيسى / الأستاذة نويجم مسعودة

جامعة الجلفة ـ الجزائر

إن أهم الدلالات لألفاظ الزمن وُجدت في كتب التفاسير الكثيرة والقيّمة. فقد كانت هذه التفاسير بمثابة مفاتيح لقراءة كتاب الله عز وجل، خصوصا وأنها ترتبط بأسباب النزول ومعرفة حيثيات القصص القرآني، حتى وإن كان هناك تفاوت قليل فهذا راجع إلى تباين الآراء واختلاف زوايا نظر بين المفسرين. وهذا ما سنوضحه في هذا المقال من خلال تتبع دلالات الزمن في قصة " أهل الكهف " كما جاءت في القرآن الكريم..

الكلمات المفتاحية: الدلالة؛ اللفظ؛ الزمن؛ القصص القرآني؛ أهل الكهف؛ القرآن الكريم؛ التفسير؛ أسباب النزول.

Time Connotations in the Story of the People of the Cave/Cavemen

Abstract: The most important connotations of the words of “time” are found in the many and valuable exegesis books. These exegesis/interpretations were like keys to reading/understanding of the Book of the Almighty Allah, especially because they are related to the reasons for their going down and cognition of the rationale for Qur’anic stories; even if there is little variation/difference in this area, this is due to divergent opinions and differing viewing angles among the interpreters. This is what we will explain in this article by following the significance of time in the story of "The People of the Cave" as it is quated in the Noble Qur’an.

Keywords: Significance, word, time, Quranic stories, Cavemen, The Holy Quran, Interpretation, causes of descent.

إن للسياق دورا كبيرا في فهم النص القرآني، لما يمثله من أهمية في تحديد معاني القرآن الكريم وليس أدل على ذلك ما وجد في كتب التفسير. فأول لفظة زمنية تصادفنا في سورة الكهف هي " الأبد " والتي نزلت في الآية الثالثة: ﴿**مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا** ﴾ وتعني من غير انقطاع، وانتهاء وتغيير حال[1]، وفي موضع آخر نجد أن " أبدا " بمعنى دائما لا زوال له ولا انقضاء [2]. وهي بنفس الشرح حتى في الطبعات الأخرى المختلفة للعلامة ابن كثير. واللفظة التي تليها مباشرة هي: " سنين عددا " أي ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف فناموا سنين كثيرة[3].

وهنا يقر المولى عز وعلى أن أهل الكهف أو الفتية بقوا مدة طويلة جدا وهي سنين كثيرة إلا أن عدد السنين بقي مطلقا ولم يُحدد ويضبط، و" عددا " نعتُ "سنين ". والعدد

تاريخ تسليم البحث: 25 جوان 2016.

تاريخ قبول البحث: 14 جانفي 2017

المستعمل في الكثرة، أي سنين ذات عدد كثير. ونظيره ما في حديث بدء الوحي من قول عائشة: فكان يخرج إلى غار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد." تريد الكثيرة. وقد أجمل العدد هنا تبعا لإجمال القصة.[4]

ثم نجد في الآية 12: ﴿**ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا**﴾ أي غاية وزمنا، فالمراد بالأمد هنا المدة [5]. قيل عددا، وقيل غاية، فإن الأمد الغاية، كقوله سبق الجواد إذا استولى على الأمد [6].

أما الآية 17 من السورة فنجد وقتا زمانيا آخر ألا وهو طلوع الشمس وغروبها إلا أنه ليس بأمر طبيعي ولا مألوف، بحيث أن الطلوع والغروب للشمس في تلك الفترة وفي ذلك المكان ألا وهو الكهف بشكل غير عادي حيث يقول عز وجل: ﴿**وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا**﴾. وهنا خطاب لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، أو يا من يصلح للخطاب ويتأتى منه الرؤية، وليس المراد به إلا الإخبار بوقوع الرؤية تحقيقا بل الإنباء بكون الكهف، بحيث لو رأيته ترى الشمس ﴿**وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ**﴾ أي تتزاور وتتنحى وتميل بحذف إحدى التاءين من الزور بفتح الواو، وهو الميل عن الكهف الذي أووا إليه، ﴿**ذَاتَ الْيَمِينِ**﴾ أي جهة ذات يمين الكهف، عند توجه الداخل إلى قعره أي جانبه الذي يلي المغرب، فلا يقع عليهم شعاعها، فيؤذيهم لأن الكهف كان جنوبيا. ﴿**وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ**﴾ أي تراها عند غروبها تقرضهم أي تقطعهم وتتركهم أي جهة ذات شمال الكهف، أي جانبه الذي يلي المشرق، وجملة قوله وهم في فجوة منه تعني أنهم في متسع من ذلك الكهف، ووسطه، فيصيبهم نسيم الهواء وبرده[7].

وخلاصة ذلك أنهم طول نهارهم لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، إذ كان باب الكهف في مقابلة بنات نعش، فهو إلى الجهة الشمالية، والشمس لا تسامت ذلك أبدا، لأنها لا تصل إلى أبعد من خط السرطان، وكل بلاد بعده إلى جهة الشمال تكون الشمس من ورائها لا أمامها، فيكون الظل مائلا جهة الشمال طول السنة، كما يعلم ذلك من علم الفلك [8]. وهذا يدل على أن فم الكهف كان مفتوحا إلى الشمال الشرقي، فالشمس إذا طلعت تطلع على جانب الكهف ولا تخترقه أشعتها. وإذا غربت كانت أشعتها أبعد عن فم الكهف منها حين طلوعها.

وهذا وضع عجيب يسره الله لهم بحكمته ليكون داخل الكهف بحالة اعتدال فلا ينتاب البلى أجسادهم، وذلك من آيات قدرة الله [9]. ولعل هذا الوضع لم يكن إلا لبيان قدرة الله سبحانه وتعالى ودلائل قدرته وعنايته بأوليائه ومؤيدي دين الحق، لأن العبرة هنا ليس بمكان

الكهف وتواجده وإنما بحالته وقت الطلوع والغروب. أي أن ما صنع الله بهم من تزاور الشمس وقرضها حالتي الطلوع والغروب، مع كونهم في موقع شعاعها من آيات الله العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته، وحقية التوحيد، وكرامة أهله عنده، ثم بيَّن أن هدايتهم إلى التوحيد كانت بعناية الله ولطفه [10].

وقد ذكر لفظ " يوم " أو" بعض يوم " في الآية 19: ﴿**وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا**﴾ أي قال بعضهم جوابا عن سؤال من سأل منهم: « لبثنا يوما أو بعض يوم » ظنا منهم أن الأمر كذلك، قال المفسرون: « إنهم دخلوا الكهف غدوة وبعثهم الله سبحانه وتعالى آخر النهار، فلذلك قالوا يوما، فلما رأوا الشمس قالوا: أو بعض يوم، وكانت قد بقيت بقية من النهار.»[11]

وهذا يعني أن هناك بينهم ريب في مدة بقائهم في الكهف لكنها ليست بما يقارب الفترة التي بقوها هناك، وإنما الشك بقي بين اليوم أو بعضه وذلك يعني أن أقل من اليوم، أي كأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار وكان في آخر النهار ولهذا استدركوا فقالوا: ﴿**قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** ﴾. [12]

ونجد لفظة " أبدا " في قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا** ﴾ وهنا وضوح دلالة اللفظ المطلق من خلال تفسير هذه الآية: يعنون أصحاب دقيانوس يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها، أو يموتوا وإن واتوهم على العودة في الدين فلا فلاح لهم في الدنيا ولا في الآخرة. [13] اللفظ: " أبدا " ظرف للمستقبل كله، وهو تأكيد لما دل عليه النفي بـ " لن " من التأبيد أو ما يقاربه. وأكد التحذير من الإرجاع إلى ملتهم بأنها يترتب عليها انتفاء فلاحهم في المستقبل. لما دلت عليه حرف " إذًا " من الجزائية. [14]

ونجد لفظة الساعة في الآية 21 من السورة وهي ليست بمعناها البسيط من الزمن والذي يوافق 60 دقيقة وإنما هنا تجسد معناها بيوم القيامة في قوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**﴾، ووعد الله هو إحياء الموتى للبعث، وأما علمهم بأن الساعة لا ريب فيها، أي ساعة الحشر، فهو إن صار علمهم بذلك عن مشاهدة تزول بها خواطر الخفاء التي تعتري المؤمن في اعتقاده حين

لا يتصور كيفية العقائد السمعية وما هو بريب في العلم ولكنه في الكيفية، وهو الوارد فيه أنه لا يخطر إلا لصديق ولا يدوم إلا عند زنديق [15].

ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا: « تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد. » فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك.

أما الآية 23 من السورة والتي حوت لفظة " غدا " من خلال قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا**﴾ وهو أن المشركين لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن أهل الكهف وذي القرنين، وعدهم بالجواب عن سؤالهم من الغد، ولم يقل: « إن شاء الله. »، فلم يأته جبريل عليه السلام بالجواب إلا بعد خمسة عشر يوما[16].

وقيل: بعد ثلاثة أيام كما تقدم، أي فكان تأخير الوحي إليه بالجواب عتابا رمزيا من الله لرسوله - عليه الصلاة والسلام - كما عاتب سليمان – عليه سلام- فيما رواه البخاري: << أن سليمان قال: لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل واحدة ولدا يقاتل في سبيل الله، فلم تحمل منهن إلا واحدة ولدت شق غلام. >> ثم كان هذا عتابا صريحا فإن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما سئل عن أهل الكهف وعد بالإجابة ونسي أن يقول " إن شاء الله " كما نسي سليمان، فأعلم الله رسوله بقصة أهل الكهف، ثم نهاه عن أن يعد بفعل شيء دون التقييد بمشيئة الله. [17] وفي هذه الآية إرشاد من الله لرسوله صلوات الله وسلامه عليه إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل، علام الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما ثبت في الصحيحين [18].

ونجد التحديد الزمني المحدد لما لبثوا في الكهف وذلك في الآية 25 من السورة: ﴿**وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا**﴾ فقط، أي: ثلاث مائة سنة فقط على حساب أهل الكتاب الذين علموا قومك السؤال عن شأنهم، لأن السنين عندهم شمسية ﴿**وَازْدَادُوا تِسْعًا** ﴾ أي: وازداد أصحاب الكهف في لبثهم تسع سنوات على ثلاث مائة على حساب قومك الذين سألوك عن ذلك، فجملة ما لبثوا في كهفهم على حساب قومك ثلاث مائة سنة وتسع سنوات، لأن السنين عندهم قمرية، وشك أن في هذا البيان معجزة لرسوله – صلى الله عليه وسلم – النبي الأمي، الذي لم يقرأ، ولم يكتب، ولم يدرس الحساب، ولا الهندسة ولا الفلك، فمن أين له أن كل مائة سنة شمسية تزيد ثلاث سنين قمرية، وكل ثلاث وثلاثين سنة شمسية تزيد سنة قمرية، وكل سنة شمسية تزيد عشرة أيام، وإحدى وعشرين ساعة وخمس ساعة على السنة القمرية [19].

والمعنى: أن يقدر لبثهم بثلاث مائة وتسع سنين، فعبر عن هذا العدد بأنه ثلاث مائة سنة وزيادة تسع، ليعلم أن التقدير بالسنين القمرية المناسبة لتاريخ العرب والإسلام مع الإشارة إلى موافقة ذلك المقدار بالسنين الشمسية التي بها تاريخ القوم الذين منهم أهل الكهف وهم أهل بلاد الروم [20].

قال السهيلي في الروض الأنف: النصارى يعرفون حديث أهل الكهف ويؤرخون به. وأقول: واليهود الذين لقنوا قريشا السؤال عنهم يؤرخون الأشهر بحساب القمر، ويؤرخون السنين بحساب الدورة الشمسية، فالتفاوت بين أيام السنة القمرية وأيام السنة الشمسية يحصل منه سنة قمرية كاملة في كل ثلاث وثلاثين سنة شمسية، فيكون التفاوت في مائة سنة شمسية بثلاث سنين زائدة قمرية[21].

السنة الشمسية: مدة وصول الشمس إلى النقطة التي فارقتها من ذلك البرج، وذلك ثلاث مائة وخمسة وستون يوما وربع يوم. والسنة القمرية: اثنا عشر شهرا قمريا، ومدتها ثلاث مائة وأربعة وخمسون يوما وثلث يوم [22]. وبهذا كان الفرق بين السنة الشمسية والقمرية والآية القرآنية السابقة تناولت مدة لبث أهل الكهف على حساب السنوات القمرية والشمسية، ولهذا فلفظة سنة لوحدها غير كافية وإنما لابد من تمييز نوع السنة.

أما في الآية 28 من السورة فقد ذكرت لفظة "غداة" ولفظة "العشي" لتحديد وقت يذكرون فيه الله في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ الغداة والعشي أي في أول النهار وآخره، والمراد الدوام أي مداومين على الدعاء في جميع الأوقات أوبالغداة لطلب التوفيق والتيسير، والعشي لطلب عفو التقصير، وقال قتادة: « إلى صلاة الفجر، وصلاة العصر. »[23]

و"الغداة " - قرأه الجمهور بألف بعد الدال -: اسم الوقت الذي بين الفجر وطلوع الشمس، و" العشي ": المساء. والمقصود أنهم يدعون الله دعاء متخللا سائر اليوم والليلة والدعاء المناجاة والطلب والمراد به ما يشمل الصلوات [24].

وقد تكررت لفظة " الأبد " في سورة الكهف في أكثر من موضع حيث أننا نجدها في الآية 35 من السورة حيث يقول عز وجل: ﴿**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا**﴾. والأبد: مراد منه طول المدة، أي هي باقية بقاء أمثالها لا يعتريها ما يبيدها – ويقصد هنا الجنة – وهذا اغترار منه بغناه واغترار بما لتلك الجنة من وثوق الشجر وقوته وثبوته واجتماع أسباب نمائه ودوامه حوله[25]. وانتقل من الإخبار عن اعتقاده دوام تلك الجنة إلى الإخبار عن اعتقاده بنفي قيام الساعة. و"الأبد": الدهر كالأمد وانتصابه على الظرف، والمراد

هنا: المكث الطويل، وهو مدة حياته، لا الدوام المؤبد إذ لا يظنه عاقل لدلالة الحس والحدس على أن أحوال الدنيا ذاهبة باطلة.

وهاته الآية ترتبط بالآية التي تليها من حيث ارتباط الألفاظ واحتوائها على لفظتين زمنيتين متواصلتين فنجد الآية 36 من السورة: ﴿**وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا**﴾ أي: القيامة التي هي عبارة عن وقت البعث " قائمة " أي كائنة حاصلة فيما يأتي [26]. وهنا تكذيب بيوم الحشر، وكأن هذا اليوم لن يأتي أبدا، وهذا القول كان من صاحب الجنة تهكما بصاحبه. وقرينة التهكم قوله: ﴿**لَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا**﴾. وهذا كقول العاص بن وائل السهمي لخباب بن الإرث: « ليكونن لي مال هنالك فأقضيك دينك منه. ». وأكد كلامه بلام القسم ونون التوكيد مبالغة في التهكم [27].

أما الآية 44 من السورة والتي احتوت لفظة " عُقُبا " ﴿**هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا**﴾. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي " عُقُبا " بضم القاف والتنوين، وقرأ عاصم، وحمزة، والحسن، والأعمش " عُقْبا " بسكون القاف والتنوين وعن عاصم " عقبى " بألف التأنيثالمقصورة على وزن رجعى. قال أبو علي: « ما كان على " فُعُل " جاز تخفيفه بسكون عينه كالعُنُق والطُنُب. ». قال أبو عبيدة: العقُب، والعقْب والعقْبى والعاقبة بمعنى، وهي الآخرة والمعنى: عاقبة طاعة الله خير من عاقبة طاعة غيره[28]. وبعد أن ضرب المثل لدنيا هؤلاء الكافرين التي أبطرتهم وكانت سبب شقائهم، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا، ضرب مثلا لدار الدنيا عامة في سرعة فنائها وعدم دوام نعيمها [29]. إلا أن الآية 47 قد تكرر فيها لفظ يوم لكنه مرتبط بتسيير الجبال حيث يقول عز وجل: ﴿**وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا**﴾ وفي هذه الآية يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظام كما قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (9 (وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (10)**﴾ [الطور 09. 10] أي: تذهب من أماكنها وتزول كما قال تعالى: ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ**﴾ [النمل 88]. وقال تعالى: **وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ** [القارعة 05]. وقال تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا**﴾﴿**لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا**﴾ [طه 105-107] يذكر تعالى أنه تذهب الجبال وتتساوى المهاد وتبقى الأرض أي سطحا مستويا لا عوج فيه لا وادي ولا جبل.

ولهذا قال تعالى: ﴿**ويَومَ نُسَيِّرُ الجِبالَ وَتَرَى الأَرضَ بارِزَةً وَحَشَرناهُم فَلَم نُغادِر مِنهُم أَحَدًا**﴾ أي: بادية ظاهرة ليس فيها معلم لأحد ولا مكان يواري أحدا بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية. وقال قتادة: «لا بناء ولا شجر». [30]

أما الآية التي تليها وهي قوله تعالى: ﴿**وَعُرِضوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا لَقَد جِئتُمونا كَما خَلَقناكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ بَل زَعَمتُم أَلَّن نَجعَلَ لَكُم مَوعِدًا**﴾ [الكهف 48]. فقوله ﴿**لَقَد جِئتُمونا كَما خَلَقناكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ واقع موقع المفعول المطلق المفيد للمشابهة.

أي جئتمونا مجيئا كخلقكم أول مرة، فالخلق الثاني أشبه الخلق الأول أي: فهذا خلق ثان. و" ما " مصدرية. أي كخلقنا إياكم المرة الأولى، قال تعالى: ﴿**أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ [ق 15] والمقصود التعريض بخطئهم في إنكارهم البعث[31]. والإضراب في قوله: ﴿ **بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ انتقال من التهديد وما معه من التعريض بالتغليط في قالب الإنكار، فالخبر مستعمل في التغليط مجازا وليس مستعملا في إفادة مدلوله الأصلي، والزعم: الاعتقاد المخطئ، أو الخبر المعرض للكذب. والموعد أصله: وقت الوعد بشيء أو مكان الوعد. وهو هنا الزمن الموعود به الحياة بعد الموت. والمعنى: أنكم اعتقدتم باطلا أن لا يكون لكم موعد بعد الموت أبدا [32].

ثم أخبر سبحانه وتعالى عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعا لهم وتوبيخا في الآية 52 من سورة الكهف مستعملا لفظة يوم، قال تعالى: ﴿**وَيَومَ يَقولُ نادوا شُرَكائِيَ الَّذينَ زَعَمتُم فَدَعَوهُم فَلَم يَستَجيبوا لَهُم وَجَعَلنا بَينَهُم مَوبِقًا** ﴾. أي واذكر يا محمد قصة يوم يقول الله سبحانه وتعالى للكفار توبيخا وتعجيزا، وهو يوم القيامة، وقال بعضهم: يقول على ألسنة الملائكة، والأظهر هو الأول، لأنه قد ثبت أن الله تعالى يتجلى يوم القيامة للخلق، مسلمهم وكافرهم، بصور شتى، حتى يرونه بحسب ما اعتقدوه في هذه الدار، فلا يبعد كلامه معهم أيضا، لأنه كلام بالغيب والتوبيخ، لا بالرضى والتشريف، كما كلم إبليس بعد اللعن والطرد على ما سبق في سورة الحجر ونحوها. وقرأ الأعمش وطلحة ويحي، وابن أبي ليلى، وحمزة، وابن مقسم (نقول) بنون العظمة مناسبة لقوله تعالى ﴿**وَإِذ قُلنا لِلمَلائِكَةِ اسجُدوا لِآدَمَ فَسَجَدوا إِلّا إِبليسَ كانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَن أَمرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَولِياءَ مِن دوني وَهُم لَكُم عَدُوٌّ بِئسَ لِلظّالِمينَ بَدَلًا** ﴾ [الكهف 50]. [33]

والله تعالى يقول ذلك مخبرا عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعا لهم وتوبيخا: ﴿**وَيَومَ يَقولُ نادوا شُرَكائِيَ الَّذينَ زَعَمتُم فَدَعَوهُم فَلَم يَستَجيبوا لَهُم وَجَعَلنا بَينَهُم مَوبِقًا**﴾ أي: في دار الدنيا ادعوهم اليوم ينقذونكم مما أنتم فيه كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ** ﴾[الأنعام 94]. [34] وبهذا كان اليوم المذكور في هذه الآية هو يوم القيامة أو يوم الحشر، يوم الهول... إلخ.

أما الآية 55 من سورة الكهف نجد قوله تعالى: ﴿**وَما مَنَعَ النّاسَ أَن يُؤمِنوا إِذ جاءَهُمُ الهُدى وَيَستَغفِروا رَبَّهُم إِلّا أَن تَأتِيَهُم سُنَّةُ الأَوَّلينَ أَو يَأتِيَهُمُ العَذابُ قُبُلًا**﴾. فلفظة قبلا تغيرت دلالتها بين لفظة زمن أو غير ذلك، وذلك لتعدد القراءات وتعدد الحركات.

فقد قرأ الحسن والأعرج، والأعمش، وابن أبي ليلى، وخلف، وأيوب، وابن سعدان، وابن عيسى الأصبهاني، وابن جرير، والكوفيون بضم القاف والباء فاحتمل أن يكون بمعنى قِبَلا، لأن أبا عبيدة حكاهما بمعنى واحد في المقابلة. وأن يكون جمعَ " قبيل " ك " سبيل " جمعها " سُبُل ". أي: يجيئهم العذاب أنواعا، وألوانا. وقرأ باقي السبعة، ومجاهد، وعيسى بن عمر " قِبَلا " بكسر القاف وفتح الباء، ومعناه عيانا، وقرأ أبو رجاء، والحسن أيضا بضم القاف وسكون الباء وهو تخفيف " قبل " على لغة تميم، وذكر ابن قتيبة: أنه قرئ بفتحتين، وحكاه الزمخشري وقال: مستقبلا، وقرأ أُبي بن كعب، وابن عزوان على طلحة " قبيلا " بفتح القاف وباء مكسورة بعدها ياء على وزن فعيل.[35] فبهذا كان لفظ " قبلا " بتعدد معناه على حسن شكله بالحركات المختلفة والقراءات المتنوعة في احتمال واحد وهي على ذكر ابن قتيبة، وحكاه الزمخشري بمعنى مستقبلا، أما في باقي التفاسير فأغلبها تعتبر لفظة غير زمنية فمثلا في تفسير ابن كثير نجد: ﴿**تَأتِيَهُم سُنَّةُ الأَوَّلينَ أَو يَأتِيَهُمُ العَذابُ قُبُلًا**﴾ أي يرونه عيانا مواجهة ومقابلة [36].

ونجد لفظة الأبد مرة أخرى في الآية 57 من سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿**وَمَن أَظلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعرَضَ عَنها وَنَسِيَ ما قَدَّمَت يَداهُ إِنّا جَعَلنا عَلى قُلوبِهِم أَكِنَّةً أَن يَفقَهوهُ وَفي آذانِهِم وَقرًا وَإِن تَدعُهُم إِلَى الهُدى فَلَن يَهتَدوا إِذًا أَبَدًا**﴾. ذكر سبحانه وتعالى أثر هذا الختم على القلوب ﴿**انّا جَعَلنا عَلى قُلوبِهِم أَكِنَّةً**﴾ يا محمد ﴿**وإِن تَدعُهُم إِلَى الهُدى فَلَن يَهتَدوا إِذًا أَبَدًا**﴾ أي إلى طريق الفلاح، وهو دين الإسلام ﴿**فَلَن يَهتَدوا إِذًا أَبَدًا**﴾. أي لن يوجد منهم اهتداء أبدا، أي: لن يوجد منهم أبدا، أي: مدة التكليف كلها البتة إن دعوتهم إلى الهدى.[37]

لأنه محال منهم وتقييده بالأبدية مبالغة في انتقاء هدايتهم، أي ومهما كررت أيها الرسول من الدعوة إلى الحق حرصا منك على نجاتهم، وخشية نزول البلاء بهم، فلن يستجيبوا لك، ولن يهتدوا بهديك، لأن الله قد كتب عليهم الضلال بسوء أعمالهم، وقبح طواياهم، فأنى يفيد النصح وتجدي العظة، ويرق القلب [38].

فلفظة " الأبد " هنا تدل على الزمن المطلق أو الأبدية فقد جاءت هذه الآية في قوم علم الله أنهم سيموتون على الكفر من مشركي مكة، فقد أكد سبحانه وتعالى نفي اهتدائهم بحرف توكيد النفي وهو " لن "، وبلفظ " أبدا " المؤكد لمعنى " لن " وبحرف الجزاء المفيد سبب الجواب على الشرط [39].

وقد وردت لفظة موعد مرة أخرى في الآية 58 من سورة الكهف في قوله تعالى: و﴿**رَبُّكَ الغَفورُ ذُو الرَّحمَةِ لَو يُؤاخِذُهُم بِما كَسَبوا لَعَجَّلَ لَهُمُ العَذابَ بَل لَهُم مَوعِدٌ لَن يَجِدوا مِن دونِهِ مَوئِلًا** ﴾. والمعنى هنا: أي وربك أيها الرسول غفور لذنوب عباده، ذو رحمة واسعة بهم إذ هم أنابوا إليه، ورجعوا إلى رحاب عفوه وجوده وكرمه، فيرحمهم واسع الرحمات ، ويتجاوز لهم عن عظيم الخطيئات، ولو شاء أن يؤاخذهم بما اجترحوا من المعاصي، كإعراضهم عن آياته، ومناصبتهم العداء لرسله، ومجادلتهم بالباطل، لعجل لهم العذاب في الدنيا [40]، إلا أنه جعل لهم موعد وهو أجل مقدر قيل: هو عذاب الآخرة، وقيل: يوم بدر، فالموعد هنا اسم زمان أي لم يعجل لهم العذاب إذ لهم موعد للعذاب متأخر، وهذا تهديد بما يحصل لهم يوم بدر.

وأكد النفي بـ: " لن " ردا على إنكارهم، إذ هم يحسبون أنهم مفلتون من العذاب حين يرون أنه تأخر مدة طويلة، أي لأن لا ملجأ لهم من العذاب دون وقت وعده أو مكان وعده [41].

وقد تكررت لفظة " موعد " في الآية الموالية لها وهي الآية 59 من سورة الكهف حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَتِلكَ القُرى أَهلَكناهُم لَمّا ظَلَموا وَجَعَلنا لِمَهلِكِهِم مَوعِدًا**﴾ أي: جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين لا يزيد ولا ينقص أي: وكذاك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذر [42]. والآية تعني أن لهلاكهم " موعد "، أي: وقتا معينا لا يتأخرون عنه، وقد اختلفت القراءات كما سبق حتى للفظة " مهلكهم " وقرأ الجمهور " لِمُهلَكهم " بضم الميم، وفتح اللام قال الزجاج: وفيه احتمالان أحدهما: أن يكون مصدرا مضافا إلى المفعول فيكون المعنى: وجعلنا لإهلاكهم، والثاني: أن يكون زمانا، فالمعنى لوقت هلاكهم، وقرأ حفص، وهارون، عن أبي بكر بفتح الميم واللام، وهو مصدر مثل الهلاك، وهو مصدر مضاف إلى المفعول، أي لإهلاكهم، وقرأ حفص عن عاصم بفتح الميم وكسر اللام، فيكون زمانا، أي لوقت إهلاكهم [43].

أما الآية 60 من سورة الكهف والتي يقول فيها عز وجل: ﴿ **وَإِذ قالَ موسى لِفَتاهُ لا أَبرَحُ حَتّى أَبلُغَ مَجمَعَ البَحرَينِ أَو أَمضِيَ حُقُبًا**﴾ فنجد اللفظة الزمانية حُقب.. والحقب – بضمتين - اسم للزمان الطويل غير منحصر المقدار، وجمعه أحقاب وعُطِف " أمضي " على " أبلغ " بـ " أو " فصار المعطوف إحدى غايتين للإقلاع عن السير، أي إما أن أبلغ المكان أو أمضي زمنا طويلا. ولما كان موسى لا يخامره الشك في وجود مكان هو مجمع البحرين وإلغاء طلبته عنده، لأنه علم ذلك بوحي من الله تعالى، تعين أن يكون المقصود بحرف الترديد تأكيد مضيّه زمنا يتحقق فيه الوصول إلى مجمع البحرين [44]. فالمعنى لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين بسير قريب أو أسير أزمانا طويلة فإني بالغ مجمع البحرين لا محالة. وكأنه أراد بهذا تأييس – من اليأس – فتاه من محاولة رجوعهما. كما دل عليه قوله بعد: ﴿**فَلَمّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا**

غَداءَنا لَقَد لَقينا مِن سَفَرِنا هذا نَصَبًا﴾[الكهف 62]. أو أراد شحذ عزيمة فتاه يساويه في صحة العزم حتى يكونا على عزم متَّحِد[45]. فقوله: ﴿**حَتّى أَبلُغَ مَجمَعَ البَحرَينِ أَو أَمضِيَ حُقُبًا** ﴾ أي ولو أني أسير حقبا من الزمان، قال ابن جرير رحمه الله: « ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحقب في لغة قيس سنة. » ثم روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: «الحقب ثمانون سنة.».

وأسير " حقبا " أي: زمانا طويلا أتيقن معه فوات المطلب، أو أسير ثمانين سنة، يعني حتى يقع، إما بلوغ المجمع، أو مضي الحقب، قال الجوهري: الحُقب - بالضم - ثمانون سنة، وقال النحاس: « الذي يعرفه أهل اللغة أن الحقب والحقبة زمان من الدهر مبهم غير محدود، كما أن رهطا وقوما منهم غير محدود، وجمعه أحقاب. »[46]

ونجد ظرف الزمان " بعد " في الآية 76 من سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿**قالَ إِن سَأَلتُكَ عَن شَيءٍ بَعدَها فَلا تُصاحِبني قَد بَلَغتَ مِن لَدُنّي عُذرًا** ﴾ خصوصا أن ظرف الزمان "بعد" ضد " قبل " وتلزم الإضافة، ففي هذه الآية نجد قول سيدنا موسى عليه السلام: ﴿**إِن سَأَلتُكَ عَن شَيءٍ بَعدَها** ﴾ أي إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة: ﴿ **فَلا تُصاحِبني قَد بَلَغتَ مِن لَدُنّي عُذرًا** ﴾أي أعذرت إلي مرة بعد مرة، قال ابن جرير: حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا حجاج بن محمد عن حمزة الزيات عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكر أحد فدعا له بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: "رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب ولكنه قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا."[47]

ونجد الحديث مرة ثانية عن وقت غروب الشمس كما كان سابقا في الآية 17 عن قصة أصحاب الكهف، وكيف كانت الشمس إذا غربت تقرضهم ذات الشمال، أما في هذه المرة " غروب الشمس " فهي في قصة ذي القرنين فنجدها في الآية 86 من سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿**حَتّى إِذا بَلَغَ مَغرِبَ الشَّمسِ وَجَدَها تَغرُبُ في عَينٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَها قَومًا قُلنا يا ذَا القَرنَينِ إِمّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمّا أَن تَتَّخِذَ فيهِم حُسنًا** ﴾

أي فسلك طريقا حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب وهو مغرب الأرض، وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدة، والشمس تغرب من ورائه، فشيء لا حقيقة له، وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب واختلاف زنادقتهم وكذبهم، وقوله تعالى: ﴿**حَتّى إِذا بَلَغَ مَغرِبَ الشَّمسِ وَجَدَها تَغرُبُ في عَينٍ حَمِئَةٍ** ﴾أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة في لا تفارقه. [48]

حدثنا عمر بن ميمون أنبأنا ابن حاضر أن ابن عباس ذكر له أن معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف: (تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ)، قال ابن عباس لمعاوية ما نقرؤها إلا (تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ)، فسأل معاوية عبد الله بن عمرو كيف تقرؤها؟ فقال عبد الله: كما قرأتها، قال ابن عباس: فقلت لمعاوية في بيتي نزل القرآن، فأرسل إلى كعب. فقال له: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ . فقال له كعب: سل أهل العربية فإنهم أعلم بها، وأما أنا فإني أجد الشمس تغرب في التوراة في ماء وطين وأشار بيده إلى المغرب. قال ابن حاضر: لو أني عندك أفدتك بكلام تزداد فيه بصيرة في حمئة، قال ابن عباس: وإذًا ما هو؟ قلت: فيما يؤثر من قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين في تخلقه بالعلم وإتباعه إياه:

بلغ المشارق والمغارب يبتغي ** أسباب أمر من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبها ** في عين ذي خلب وثأط حرمد

فقال ابن عباس: ما الخلب. قلت: الطين بكلامهم. قال: فما الثأط. قلت: الحمأة. قال: فما الحرمد. قلت: الأسود. والمراد بمغرب الشمس مكان مغرب الشمس من حيث يلوح الغروب من جهات المعمور من طريق غروبه أو مملكته، وذلك حيث يلوح أنه الأرض وراءه بحيث يبدو الأفق من جهة مستبحرة إذ ليس للشمس مغرب حقيقي إلا فيما يلوح للتخيل والأشبه أن يكون ذو القرنين قد بلغ بحر الخزو، وهو بحيرة قزوين فإنها عرب بلاد الصين.

كالقول في قوله: ﴿**حَتّى إذا بَلَغَ مَغرِبَ الشَّمسِ وَجَدَها تَغرُبُ في عَينٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَها قَومًا قُلنا يا ذَا القَرنَينِ إِمّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمّا أَن تَتَّخِذَ فيهِم حُسنًا**﴾. [49] ثبت بالدليل أن الأرض كرة وأن السماء محيطة وأن الشمس في الفلك الرابع، وكيف يعقل دخولها في عين وأيضا قال " وجد عندها قوما " ومعلوم أن جلوس القوم قرب الشمس غير موجود وأيضا فالشمس أكبر من الأرض مرات كثيرة فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض وإذا ثبت هذا فنقول تأويل قوله تعالى من وجوه:

الأول: أن ذا القرنين لما بلغ موضعا من المغرب، لم يبق بعده شيء من العمارات، وجد الشمس كأنها تغرب من عين مظلمة، إن لم يكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشط، وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر، ذكر هذا التأويل الجبائي في تفسيره.

الثاني: أن للجانب الغربي من الأرض مساكن يحيط البحر بها، فالناظر إلى الشمس يتخيل كأنها تغيب في تلك البحار، ولا شك أن البحار الغربية قوية السخونة، فهي حامية وهي أيضا حمئة لكثرة ما فيها من الماء ومن الحمأة السوداء[50]. ومن هذه الآية ذكر لقصة ذي القرنين فتبدأ قصته في الآية 86 وهي زمنيا وقت غروب الشمس ثم وصوله زمنيا إلى شروق الشمس.

وذلك في الآية 90 في قوله تعالى: ﴿**حَتّى إذا بَلَغَ مَطلِعَ الشَّمسِ وَجَدَها تَطلُعُ عَلى قَومٍ لَم نَجعَل لَهُم مِن دونِها سِترًا** ﴾ أي سلك طرقا ومنازل ﴿**حَتّى إذا بَلَغَ مَطلِعَ الشَّمسِ**﴾ أي: موضع طلوعها ﴿**وجَدَها تَطلُعُ عَلى قَومٍ لَم نَجعَل لَهُم مِن دونِها سِترًا**﴾، ، قال الحسن وقتادة لم يكن بينهم وبين الشمس سترا، وليس هناك سجر، ولا جبل ولا أبنية تمنع طلوع الشمس عليهم، لأنهم كانوا في مكان لا يستقر عليهم بناء، وكانوا يكونون في أسراب لهم حتى إذا زالت الشمس عنهم، خرجوا إلى معايشهم وحروثهم[51]. ومطلع الشمس، جهة المشرق من سلطانه ومملكته، بلغ جهة قاسية من الشرق حيث يخال أن لا العمران وراءها فالمطلع مكان الطلوع.

والظاهر أنه بلغ ساحل بحر اليابان في حدود منشوريا أو كوريا شرقا، فوجد قوما تطلع عليهم الشمس لا يسترهم من حرها، لا جبل فيها يستظلون بظله، ولا شجر فيها فهي أرض مكشوفة للشمس، ويجوز أن يكون المعنى أنهم كانوا قوما عراة فكانوا يتقون شعاع الشمس في الكهوف أو في أسراب يتخذونها في التراب، فالمراد بالستر ما يستر الجسد، وكانوا قد تعودوا ملاقاة حر الشمس، ولعلهم كانوا يتعرضون للشمس ليدفعوا عن أنفسهم ما يلاقونه من القر ليلا[52].

وهذا يعني أن ذا القرنين وهو راجع من مغرب الشمس سلك طريقا موصلا إلى مشرقها، ولكن هذا الشروق غير عاد، أو بالأحرى كان على قوم غير عاديين فمنهم بدون ستر، ذو القرنين وصل الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولا من معمور الأرض، إذ لا يمكنه أن يبلغ موضع طلوع الشمس، وقيل: مكان طلوعها، لعدم المانع شرعا ولا عقلا من وصوله إليه، قيل بلغه في اثنتي عشرة سنة، وقيل: في أقل من ذلك، بناء على ما ذكر من أنه سخر له السحاب وطول له الأسباب.[53]

كما نجد اللفظة الزمنية " يومئذ " في قصة ذي القرنين، وذلك في الآية 99 من سورة الكهف، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَتَرَكنا بَعضَهُم يَومَئِذٍ يَموجُ في بَعضٍ وَنُفِخَ فِي الصّورِ فَجَمَعناهُم جَمعًا** ﴾. أي: سيرنا بعض يأجوج ومأجوج يوم خروجهم من السد يموج ويختلط ببعضهم الآخر من شدة الازدحام عند خروجهم لكثرتهم، وذلك عقب موت الدجال فينحاز عيسى عليه السلام بالمؤمنين إلى جبل الطور فرارا منهم.[54]

و" يومئذ " هو يوم إتمام بناء السد المستفاد من قوله: ﴿**فَمَا اسطاعوا أَن يَظهَروهُ وَمَا استَطاعوا لَهُ نَقبًا**﴾ [الكهف 97]. [55] قيل: هذا عند فتح السد، وتركنا يأجوج ومأجوج يموج بعضهم في بعض، أي: يزدحمون كموج الماء، ويختلط بعضهم في بعض لكثرتهم. وقيل: هذا عند قيام الساعة يدخل الخلق بعضهم في بعض، ويختلط إنسهم بجنهم حيارى.

قوله تعالى: ﴿**قالَ هذا رَحمَةٌ مِن رَبّي فَإِذا جاءَ وَعدُ رَبّي جَعَلَهُ دَكّاءَ وَكانَ وَعدُ رَبّي حَقًّا**﴾ التنوين عوض من جملة محذوفة، تقديرها: يومئذ جاء وعد ربي أو إذ حجز السد بينهم.[56] وتتكرر نفس اللفظة **يَومَئِذٍ** وذلك في الآية التي تليها مباشرة، وهي الآية رقم 100 من سورة الكهف، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَعَرَضنا جَهَنَّمَ يَومَئِذٍ لِلكافِرينَ عَرضًا**﴾.

يقول تعالى مخبرا عما يفعله بالكفار يوم القيامة أنه يعرض عليهم جهنم، أي يبرزها لهم ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: <<يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة سبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك>>[57].

فمناسبة هذه الآية " 100 " لما قبلها، أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنه إذا جاء يوم القيامة ينفخ في الصور لقيام الخلق من قبورهم، بعد أن تقطعت أوصالهم وتمزقت أجسامهم، وجمعهم في صعيد واحد للحساب والجزاء...

أردف ذلك ببيان أنه إذ ذاك يبرز النار للكافرين بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظا وزفيرا، وفي ذلك تعجيل الهم والحزن لهم، من قبل أنهم تعاموا وتصاموا عن قبول الهدى وإتباع الحق، وحسبوا أن اتخاذهم أولياء من دون الله ينجيهم من عذابه، وأن ما عملوه من تلك الأعمال الباطلة نافع لهم، وكل ذلك وهم وخيال، فلا فائدة منه في ذلك اليوم ولا نقيم لهم إذ ذاك وزنا. [58] ونجد في الآية 104 من سورة الكهف قوله تعالى: ﴿ **الَّذينَ ضَلَّ سَعيُهُم فِي الحَياةِ الدُّنيا وَهُم يَحسَبونَ أَنَّهُم يُحسِنونَ صُنعًا**﴾. وهي متعلقة بالآية التي سبقتها حول نبأ الأخسرين أعمالا ويليها وصف آخر لهم في قوله: ﴿ **أُولئِكَ الَّذينَ كَفَروا بِآياتِ رَبِّهِم وَلِقائِهِ** ﴾.

ومعنى خسرانهم أن مثلهم كمن يشتري سلعة يرجو منها ربحا فخسر، وخاب سعيه، كذلك أعمال هؤلاء الذين أتعبوا أنفسهم مع ظلالهم، بطل جدهم واجتهادهم في الحياة الدنيا.[59]

وضلال: خطأ السبيل، شبه سعيهم غير المثمر بالسير في طريق غير موصلة والسعي: المشي في شدة. وهـو هنا مجاز في العمل كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا**﴾ [الإسراء 19] أي عملوا أعمالا تقربوا بها للأصنام يحسبونها مبلغة إياهم أغراضا وقد أخطئوها، وهم يحسبون أنهم يفعلون خيرا. [60]

وإسناد الضلال إلى سعيهم مجاز عقلي، والمعنى: الذين ضلوا في سعيهم فهذا يعني أنهم عملوا بغير ما أمرهم الله به، وظنوا أنهم بفعلهم هذا مطيعين له، وأنهم يحسنون صنعا، ثم استبان لهم أنهم كانوا مخطئين، وفي ضلال مبين، وأن سعيهم الذي سعوه في الدنيا ذهب هباء، فلم يجدهم نقيرا ولا قطميرا. [61] وصولا إلى آخر لفظ زماني في سورة الكهف، ألا وهو لفظ يوم

القيامة، والذي نلحظه في الآية 105 من السورة في قوله تعالى: ﴿**أُولئِكَ الَّذينَ كَفَروا بِآياتِ رَبِّهِم وَلِقائِهِ فَحَبِطَت أَعمالُهُم فَلا نُقيمُ لَهُم يَومَ القِيامَةِ وَزنًا**﴾ ويقصد بيوم القيامة، الآخرة أو يوم الحساب، يوم الحشر، يوم العقاب والثواب.

وفي معنى الآية لا نثقل موازينهم لأنها خالية من الخير. قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا سعيد بن أبي مريم، اخبرنا المغيرة، حدثني أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: << إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ **فَلا نُقيمُ لَهُم يَومَ القِيامَةِ وَزنًا**﴾. وعن يحي بن بكير عن مغيرة بن عبد الرحمان عن ابن أبي الزناد مثله، هكذا ذكره عن يحي بن بكير معلقا، وقد رواه مسلم عن ابن أبي بكر محمد بن إسحاق عن يحي بن بكير به.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يؤتى بالرجل الأكول الشروب العظيم فيوزن بالحية فلا يزنها".[62]

فهذا كله توعد لأولئك الذين كفروا بآيات الله، إلا أن هذا التوعد معلق إلى يوم الحساب والعقاب، ألا وهو يوم القيامة، والذي يبعثون فيه لا يزنون شيئا.

وبهذا كانت ألفاظ الزمن في سورة الكهف تتحدث عن:

- مدة لبث أصحاب الكهف في كهفهم
- عرض كتاب المرء عليه في الآخرة ووصف المشركين يومها.
- ذكر ما يلاقيه الكفار من الوبال والنكال يوم القيامة.
- لوم الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بتأخر الوحي بعد أن واعد المشركين "غدا" دون أن يقول "إن شاء الله".

كرامة قرآنية ومعجزة إلهية في سورة الكهف:

هناك معجزة مبهرة في سورة الكهف تشهد على أن هذا القرآن ليس من كلام بشر، بل هو كلام رب البشر سبحانه وتعالى [63]، ففي هذه القصة يبين الله لنا أنه قد بعث أصحاب الكهف بعد 309 سنة من الرقاد، وقد تطابق هذا العدد مع عدد كلمات قصة أصحاب االكهف وهو 309 كلمة، حيث قمنا بالعد من كلمة " لبثوا " إلى كلمة " لبثوا "، ولكن يتبين لنا أننا حتى لو غيرنا طريقة العد فإن العدد 309 يبقى ثابتا معجزا وشاهدا على صدق كلام الله تعالى على المشككين والمشركين به سبحانه وتعالى.

مراجع البحث وإحالاته:

---

1 الشافعي : تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، دار المنهاج، بيروت، مجلد16، ص 284.

2 ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، دار ابن باديس، الجزائر، الطبعة الأولى، 1994 م، المجلد الثالث، ص 98 .
3 المرجع نفسه، ص 101
4 محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، د ط، 1984، الجزء 13. ومحمد بن إبراهيم الفيروز أبادي: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، دار الكتاب العلمية، د ط، د ت، ص 268
5 الشافعي : تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، ص 294
6 ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ص 101
7 المرجع نفسه، ص 299 - 300
8 ابن كثير، المرجع السابق، ص 300
9 محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ص 279
10 الشافعي : تفسير حدائق الروح والريحان، ص 301 - 302
11 المرجع نفسه، ص 305
12 ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، ص 114
13 المرجع نفسه، ص 114
14 محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير، ص 286
15 محمد الطاهر بن عاشور : المرجع السابق، ص 288
16 المرجع نفسه، ص 295
17 المرجع نفسه، ص 295
18 ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، ص 116
19 الشافعي : تفسير حدائق الروح والريحان، ص 336 . 337
20 محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير، ص 300
21 المرجع نفسه، ص 301
22 الشافعي : تفسير حدائق الروح والريحان، ص 337
23 الشافعي : المرجع السابق، ص 341
24 محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير، ص 305
25 المرجع نفسه، ص 321
26 الشافعي : تفسير حدائق الروح والريحان، ص 370 . 371
27 محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير، ص 321
28 الشافعي : تفسير حدائق الروح والريحان، ص 380
29 المرجع نفسه، ص 381
30 ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، ص 129
31 محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير، ص 336 . 337
32 المرجع نفسه، ص 337
33 الشافعي : تفسير حدائق الروح والريحان، ص 410

34 ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ص 132
35 الشافعي : تفسير حدائق الروح والريحان، ص 414
36 ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، ص 134
37 الشافعي : تفسير حدائق الروح والريحان، ص 417
38 المرجع نفسه، ص 417
39 محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والنتوير، ص 356
40 الشافعي، تفسير حدائق الروح والريحان، ص 418
41 محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والنتوير، ص 357
42 ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، ص 135
43 الشافعي : تفسير حدائق الروح والريحان، ص 419
44 محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والنتوير، ص 365
45 المرجع نفسه، ص 365
46 الشافعي : تفسير حدائق الروح والريحان، ص 435
47 ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، ص 133
48 ابن كثير: المرجع السابق، ص 138
49 محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ص 24
50 ابن عادل الحننبلي : اللباب في علوم الكتاب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998، ج01، ص 557
51 ابن عادل الحنبلي : المرجع السابق، ص 560
52 محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير، ص 28
53 الشافعي : تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، المجلد السابع عشر، ص 35
54 الشافعي : تفسير حدائق الروح والريحان، ص 44. 43
55 محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير، ص 40
56 ابن عادل الحنبلي : اللباب في علوم الكتاب، ص 570
57 ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، ص 144
58 الشافعي : تفسير حدائق الروح والريحان، ص 57
59 ابن عادل الحنبلي : اللباب في علوم الكتاب، 572
60 محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير، ص 47. 46
61 الشافعي : تفسير حدائق الروح والريحان، ص 62
62 ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، ص 145
63 عبد الدايم الكحيل :مقال : حقائق جديدة في إعجاز القرآن الكريم، موقع أنترنيت : www. kaheel7. com